الفصل الثالث والعشرون
"خوف وبكاء"

كان المنظر مهيبا مروعًا حينما شاهدت جنة حبيبها مسجيًا على وجهه تخترق ظهره رصاصة وقد فقد الوعي، جعلت تصرخ بهيستريا:

- هشاااام.. هشام فووووق.. يا مااالك.. أحمد.. الحقووووووني.

خرج على صراخها مالك وأحمد وسارة، وأصابهم ما أصاب جنة من هول الموقف؛ فبادر مالك بطلب الإسعاف.

بعد دقائق وصلت الإسعاف ورافقته جنة، وتبعهُما مالك وأحمد بسيارتهما، وفي غضون دقائق وصلوا المشفى، ومن ثمّ أدخلوا هشام إلى غرفة العمليات على الفور وتبعه الأطباء وطاقم التمريض.

في تلك الأثناء كانت جنة تبكي، وسألت إحدى الممرضات قبل أن تدخل إلى غرفة العمليات:

- لو سمحتي! هو.. هو حالته خطر؟

ربتت الممرضة على كتفها قائلة بأسى:

- ادعيله.. إن شاء الله خير.

انهارت جنة وتهاوَى جسدها لتسقط محلها؛ فتحرك أحمد صوبها وجلس بجانبها يربت على كتفها محاولًا تهدئتها:

- ماتخافيش.. إن شاء الله هيقوم بالسلامة، تفاءَلُوا خيرًا تجدوه، مش انتِ دايمًا بتقولي كده! اتفاءلي خير وادعيله وربنا هيستجيب، خلّي أملك في ربنا كبير.

أومأت رأسها عدة مرات تمسح بدموعها؛ ليحل محلها دموع أخرى عن غير إرادتها، فتساءلت:

- هو مالِك فين؟

- بيكمل إجراءات المستشفى، ولأن طبعًا دي جريمة قتل هتلاقي البوليس جاي يحقق معانا؛ لأنه اتضرب عندنا.. صحيح هو أهله عرفوا؟

- لا ماعتقدش.. بس.. بس تليفونه معايا.

- طب كويس، افتحيه وكلميهم.

أخرجت هاتفه، لكنها زفرت خانقة:

- أووووف.. فيه باسوورد.

- طب حاولي تجربي أي أرقام تواريخ مهمة بالنسبة له، أو اسم حد قريب منه.

أخذت تجرب تاريخ ميلاده واسمه بأكثر من صيغة دون طائل من ذلك؛ فتطرق إلى ذهنها أن تضع اسم خطيبته أو تاريخ خطبتهما، لكن كل محاولاتها أضحت هباءً منثورًا، فضجرَت من ذلك؛ فحاول أحمد مساعدتها قائلًا:

- طب ممكن تديني أنا أحاول.

نظرت له بتعجب؛ فمن أين له بمعلومات عن هشام، لكنها أعطته له على أي حال هاتفةً بذعر:

- خد، أنا مابقاش فيّا أعصاب.

ثم تركته ونهضت مسرعة نحو باب غرفة العمليات تحاول رؤية أي شيء عبر الزجاج، لكن الستائر قد أُسدِلَت بالفعل؛ فأخذت تبكي تضم قبضتيها على صدرها وتتمتم بالكثير من الأدعية ترجو الله أن يبعث لها بإشارة اطمئنان ليستكين قلبها، لكن وإن كان فحالتها لن تدعها لترى شيئًا.

فاجأها أحمد بعد محاولته الثالثة بفتح الهاتف؛ فاندهشت قائلة:

- إيه ده عرفته ازّاي؟

- لمحته لما كان عندنا وهو بيفتحه، كنت فاكر أول كلمة لأنها طبعًا ماتتنسيش والتانية خمنتها.

رمقته بعدم فهم من خلف دموعها تحثه على الاسترسال فتابع:

- Ganna love ده كان الباسوورد بتاعه.

زادت في بكائها الذي لم يتوقف؛ فسألته بقلب ممزق يتلهف للاطمئنان:

- هيبقى كويس.. مش كده؟

وضع كفه على يدها، وأطبق جفنيه مطمئنًا:

- هيبقى كويس.. إن شاء الله هيبقى كويس.. أنا هقوم أكلّم أهله، مش هينفع تكلميهم وانتِ منهارة كده، صحيح هي مرات باباه اسمها إيه أو مسجلّه هنا إيه؟

- مش عارفة مسجلها إيه، بس.. أفتكر قالّي اسمها منيرة.

- آه خلاص لقيته.

انزوَى أحمد بأحد الأركان وهاتَفَ منيرة، وألقى عليها تلك الخبرية الصادمة وفهم مما سمع أنها فقدت وعيها؛ فصرخت ابنتها "ماما.. مالِك يا ماما؟"، وتحدث إليه عماد متسائلًا عن كنهه وبمَ أخبرها؛ فتلقى هو الآخر الصدمة.

بعد القليل وصل عماد ومنيرة وحنين إلى المشفى ليجدوا جنّة تتشبث بباب غرفة العمليات، ومالك وأحمد جالسَين على المقاعد أمام الغرفة؛ فصرخت منيرة:

- ابني فين؟ إيه اللي حصل لابني؟ هو كويس، مش كده؟

قام مالك وحاول تطمئنتها:

- اهدِي يا أمي.. هو دلوقتي في العمليات، إن شاء الله يقوم بالسلامة، ادعيله.

أضحَت تدعو بقلب أُمّ يتلهّف لسلامة قطعة منه "يا رب.. يارب، أنا ماعنديش غيره هو وبنتي، أتوسل إليك يا رب خد من عمري وادّيلُه وقوّمه بالسلامة".

أخذت حنين تنتحِب وتضم والدتها، بينما تساءل عماد:

- طب الرصاصة جاتله فين؟ ومين اللي عمل فيه كده؟

مالك: ماشوفناش اللي ضربه، بس الظاهر كان حد مراقبه، والرصاصة جات في ضهره من ناحية الشمال.

حينذاك وصل سامر يغزو القلق ملامحه، وأردف مستخبرًا:

- ها يا جماعة؟ مفيش أي أخبار من الدكاترة؟

عماد: لا للأسف لسه.

توجه سامر إلى جنّة فانتبهت له، لكنها لم تستطع أن تطالعه بعينيها المغرورقتين؛ فأردف بأسف:

- آنسة جنة، أنا عارف إن اللي بيحصل معاكي دلوقتي صعب..

ثم تنهد وتابع:

- بس حضرة الظابط من المباحث عايز ياخد أقوالك.

هزت رأسها بعنف:

- أنا مش هتحرك من هنا قبل ما أطمّن على هشام.

- بس يا آنسة جنة انتِ لازم تساعدينا عشان نقدَر نوصل للّي عمل كده فيه.

- بس أنا ماشُفتش حاجة.. أرجوك.. هعمل كل اللي انتوا عايزنه، بس أطمّن عليه الأول.

انضم إليهما أحمد، وقال:

- معلش يا حضرة الظابط انتَ شايف حالتها، أنا ومالك هنيجي معاك وممكن تأجّل الكلام معاها لحد ما هشام يطلع.

أومأ سامر موافقًا، وذهب معهما إلى حيث ينتظرهما الضابط لأخذ إفادتهما، بينما نهضت منيرة عن مقعدها، واتجهت صوب جنة؛ فالتفتت لها جنة لا تستطيع منع نفسها من البكاء، ودون أن تشعر ارتمت بين ذراعيها وكأنها تعرفها من قبل، ربما لأن هناك رابط بينهما وهو حب هشام، ضمتها منيرة وزادت في ضمها، تربتُ على رأسها ومضت تتمتم:

- أنا الغلطانة يا بنتي سامحيني، أنا اللي بعدتُه عنك، وهو دلوقتي اللي بيدفع تمن غلطتي.. أجبرتُه على ظلم بنتين وفكّرت إني بعمل له الصالح.

أجهشَت جنة بالبكاء، ثم ابتعدت عنها قليلًا تمسح دموع منيرة، وقالت:

- ماتقوليش كده.. وماتخافيش هشام هيقوم ويرجع لنا تاني، صدقيني، هو وعدني وهشام ماخلَفْش وعده معايا ولا مرة.

بثَّت تلك الثقة النابعة من جنّة بعض الطمأنينة بقلب منيرة فأومأت موافقة، ومن ثم وقف الجميع ينتظر خروج أحدٍ يخبرهم أي شيء، تُرتِّل حنين ما تيسّر لها من القرآن، وتتمتم منيرة بالأدعية، وتُحدِّث جنة حبيبها من وراء حجاب على يقين من أن كلامها يصِل إلى قلبه ويسمعها بكل جوارحه وإن كان مغيّبًا عن الوعي.

خرج الطبيب من غرفة العمليات؛ فركض الجميع نحوه متسائلين بلهفة وخوف جليّ، وعلى رأسهم منيرة:

- ابني عامل إيه يا دكتور؟ أرجوك طمّن قلبي.

تنهد الطبيب بأسف، وكأنه لا يودّ كسر قلب تلك الأم الذي بدأ القلق يميتها بالبطيء، لكن ما باليد حيلة، انطلق قائلًا:

- هكون صريح معاكوا، الرصاصة جاتله في مكان خطر جدًا، ده غير إن قلبه وقف مرة وأنعشناه بصعوبة، احنا عملنا اللي علينا، لكن حالته ما زالت خطر، ادعولُه.. هو محتاج دعواتكم دلوقتي أكتر من أي حاجة.

صاحت جنة بفزع تصرخ بهيستريا:

- قصدك إيه؟ قصدك إن هشام ممكن يموت؟! لا هو مش هيموت هو وعدني مش هيسيبني.. وعدني إنه هيرجعلى تاني، هو.. هو قالّي إنه هيسيبني بس أفكر وأراجع نفسي، هشام مش هيمووت سامعني؟ مش هيموت.. اتصرّف.. ادّيلُه أدوية.. اعمل أي حاجة..

جعلت تصرخ في الطبيب وتُهزِي بكلام بلا معنى حتى انهارت، وسقطَت مغشيًا عليها؛ فطلب الطبيب من الممرضات نقلها إلى غرفة وأعطاها مهدئًا؛ فخلدت إلى النوم مُجبَرة، كان بجانبها أحمد ومالك يتبادلان النظرات بوهن وأسف؛ فأردف أحمد:

- ليلة طويلة وصعبة.

تنهد مالك بأسى:

- ربنا يعدّيها على خير، مش عارف.. على الرغم إني ماكُنتُش طايقه من اللي عمله فيها، لكن زعلان عليه جدًا وعليها هي كمان.

- هشام حبَّها بجد.

- وهو اللي بيحب حد بيكذِب ويخبّي عليه إنه خاطب، وكذب علينا احنا كمان وخلانا مغفلين.

- هي دي الحتة اللى مضايقاك منه؟ دي اللي وجعاك قوي؟! لأنك حبيته وانسجمتوا قوي مع بعض كأنكوا أصحاب من سنين على الرغم إنك مابتصاحبش حد بسهولة، وأظن إن هو كمان كده.. بص أنا مش عارف هو عمل كده ليه؟ بس متأكد من حُبه ليها؛ لأني شُفتُه في عنيه وفي خوفه عليها.

استفاقت جنة بعد ساعتين من نوم لا يخلو من الكوابيس التي أجبرتها على الاستيقاظ، وجدت أحمد نائمًا على الكرسي بجانبها، وألقت نظرة على الساعة المعلّقة على الحائط أمامها لتجدها السادسة صباحًا، كانت بضع ثواني حتى استوعبَت الموقف واستجمعت الصورة؛ فانتصبت ووثبَت من فراشها مما أفزع أحمد من نومه:

- إيه.. إيه؟ حصل حاجة تاني؟

- انتوا ازّاي تسيبوني نايمة؟ هشام فين؟ ويعني إيه تاني؟ هو هشام حصل له حاجة؟

- بس بس اهدي مفيش حاجة، خضّتيني ربنا يسامحك، هشام زي ما هو في العناية المركزة مستنيين يفوق.

- أومّال إيه اللي حصل؟

- مفيش يا ستي، خالتك طبعًا ماعدّتش الحدث كده؛ فاتصلت بأبوكي وقالتله على كل اللي حصل، وطبعًا شوية شطة من عندها

كالعادة، أبوكي شاط واتّصل بينا وقعد يهزأنا شوية، ومالِك راح له قبل ما ييجي ويحصل مشكلة هنا.

- طب ودّيني عند أوضة هشام.
- أوك يلّا، بس انتِ كويسة؟
- آه آه يلّا.

وصلت جنة إلى غرفة العناية المركزة التي يرقد بها هشام؛ لتجد منيرة تجلس أمامها تمسك بمصحف بين يديها وتقرأ منه ابتغاء شفاء ابنها، بينما أسندت حنين رأسها على كتف عماد، ورضخَت إلى سلطان النوم بعد تلك الليلة الشاقة.

وقفت جنة أمام نافذة الغرفة تطالع هشام بنظرات حزن وتوسُّل، توسُّل ألّا يتركها، ترجوه بأن يعود إليها من جديد، تتذكّر جميع مواقفها معه، منذ أول لقاء في محطة المترو لحظة قبضه عليها، وكيف كان هو نفسه مصدر الأمان لها؟ لحظات التحقيق معها.. مكالماتهما.. رسائلهما.. لقاءاتهما وضحكاتهما، كل شيء مرّ أمام عينيها كشريط عرض سينيمائي، هل ظهر في حياتها بتلك الطريقة ليغادر بهذه السرعة!

خرجت ممرضة من عند هشام؛ فاستوقفتها جنة قائلة:

- هو أنا ممكن أدخل شوية لو سمحتي؟ مش هقعد كتير..أرجوكِ.

أومأت الممرضة بعد تفكير، ثم طالعَت جنة منيرة بتساؤل؛ فأومأت لها موافقة هي الأخرى.

دخلت جنة إلى الغرفة تجُرّ قدميها، أحضرَت مقعدًا وجلست إلى جانبه تتأمل وجهه الشاحب المتألم وشعره المغطَّى بغطاء رأس بلاستيكيّ، مدَّت يدها المرتجفة لتستقر على يده، ومضت تتمتم:

- هشام! أرجوك كفاية كدَه بقى وقوم.. أعصابي مابقتش مستحملة بجد، وبعدين ماينفعش تكون بالضعف ده.

خانتها دموعها؛ فسالت من عينيها بحرقة، لكنها تابعت:

- هشام، انتَ سألتني قبل كده بثق فيك ولا لأ.. فاكر جاوبتَك بإيه؟ قولتلك إني بثق فيك أكتر من نفسي زي ما دلوقتي واثقة إنك هتهزم كل حاجة عشان ترجع لي ونكمل سوا.. أصلًا مش هقدر أكمّل من غيرك، عايزاك ترجع تاني سيادة الرائد المغرور.. طاووس الأمن الوطني.

أجهشت بالبكاء وانكبّت بوجهها على يده فارتعش أصبعه، انتبهت لحركته؛ فـلاح على ثغرها ابتسامة أمل، وهزت رأسها واستطردت:

- عارفة.. عارفة إنّك سامعنى وهترجع لي.

جاءت الممرضة لتخبرها بأنها يجب أن تخرج؛ فأشارت لها موافقة، وضعت يده على السرير برفق ومسحت دموعها، وخرجت بعد أن ألقت عليه نظرة أخيرة.

النهاية

كانت الساعة العاشرة صباحًا حينما تفاجأ الجميع بحضور سامر متسائلًا عن حال هشام؛ فأجابه عماد:

- مفيش جديد.
- احنا عرفنا اللي ضربه وبيتحقّق معاه دلوقتي.
- إيه ده؟ قبضتوا عليه بالسرعة دي؟
- في الحقيقة مش احنا اللى قبضنا عليه، هو اللي جه سلّم نفسه.
- وده يطلع مين بقى؟
- يبقى أخو النقيب جمال.
- النقيب جمال اللي هشام قبض عليه؟
- بالظبط كده.
- آه يا ابن الكلب، جاي ينتقم يعني!

حينذاك وصل طارق والد جنة، يتجلّى على وجهه علامات الانزعاج، لكنه حاول أن يضبط أعصابه مراعاة لحالتهم، وأردف:

- السلام عليكم.. أنا والد جنة.

رحّب به عماد مصافحًا، وردت منيرة:

- أهلًا بحضرتك.
- ألف سلامة على سيادة الرائد، ربنا يقوّمه لكم بالسلامة.